٣ ــ انتصار

ظفر به(١) رئيس الوزراء أمس آخر النهار فابتهجت له مصر كلها سواد الليل . وقد أشرقت الشمس وما زالت شمس الابتهاج مشرقة على النفوس ، متألقة فى القلوب حتى اضطرب الناس بين شمسين : شمس النهار وشمس الانتصار . وكان رئيس الوزراء خليقا بأن يسعد بهذا الفوز ، وكانت مصر كلها خليقة أن تنعم به ، وأن يستخفها الطرب له ، فقد كانت الحرب عنيفة ، وكان الجهاد شديدا ، وكان الخصوم أقوياء ألدَّاء ، وكان الخطر كل الخطر يطيف بالوزارة ، والشر كل الشر يسعى إليها ، والهول كل الهول يمد إلى مصر أيديا طوالا ، دامية الأظفار . وكان كل شيء مظلما حتى خيل إلى الناس أن ليس لهذا الخطب آخر ، ولا من هذه المحنة من مخرج .

فلما أذن الله بالفوز ، وصوَّت النواب بالثقة ، يرسلها بعضهم إرسالا ، ويرتلها بعضهم ترتيلا ؛ زال الكرب ، وانجلت الحرب ، فإذا رئيس الوزراء قد اكتسح الميدان ، ولم يترك فيه إلا صرعى ثمانية ، كانوا هم كل الجيش المحارب ، وكانوا هم كل العدو المغالب ، وكانوا هم أصل الفتنة ومصدر المحنة ، فأدال الله منهم وكفى الله المؤمنين القتال ، وأصبح من الحق لرئيس الوزراء أن يسجل حسن بلائه وغناء زملائه ، وانتصار وزارته فى المعركة ، كما كان يوليوس قيصر يسجل انتصاراته ، ويصدر بها نشرات فى روما ، ما تزال تعتبر إلى الآن من آيات البيان .

والغريب أن بين أنصار الوزارة وأوليائها من ينظرون إلى هذه الحرب نظرة الحسد ، ويتحدثون عنها حديث المجد ، ويسجلون الفوز ، وينتظرون من ورائه الخير ، ويقدرون أنه سيملأ خصوم الوزارة هولا وروعا ، وسيرد إلى الإنجليز ثقتهم بها وحبهم لها واعتمادهم عليها ، وهم يعلمون حق العلم أن لم تكن هناك حرب ، وأن لم يكن هناك فوز ، وإنما صال الصائلون ، وجال الجائلون ، وقال القائلون فى حرب الأخيلة والظلال فانتصروا ولم ينهزم لهم أحد ، وظفروا ولم تنصب

---

(١) ٣ ــ ٥ ــ ١٩٣٣ .

لهم حرب ، وأعلن إليهم رئيس خصومهم أنهم لا يريدون حربا ولا كيدا ، ولا يطلبون منح الثقة ولا رفضها لأنهم مستسلمون قبل الحرب ، منهزمون قبل القتال ، مستيقنون أن الكثرة المطلقة فى المجلس لن تجرؤ على مناهضة الوزارة أو الشك فيها ، أو محاولة الكيد لها . وإنه إذا لم يكن بد من ثقة فحاجة المجلس إلى ثقة الوزارة به أشد من حاجة الوزارة إلى ثقة المجلس بها . وأنه تعود أن يرى الوزارات تحل المجالس النيابية ، ولم يتعود أن يرى المجالس فى مصر تسقط الوزارة ، وأنه لهذا كله ، ومعه أصحابه المخاصمون والمعارضون لا يريدون إلا أن يسجلوا آراءهم ليس غير . قال ذلك وألحَّ فيه ، وسمع له المجلس ، وسمعت له الوزارة ، وسجَّلته الصحف ونشرته الأهرام صباح اليوم . ومع هذا كله كثر كلام الخطباء فى مجلس النواب ، وألح رئيس الوزراء وتشدد فى طلب الثقة وفى تشخيصها وإظهار حرصه الشديد على أن تكون ثقة لا تشبهها ثقة ، ومع ذلك نشطت الأحزاب البرلمانية بياض النهار أمس ، كأن الأمر جد ، وكأن الوزارة تتعرض لخطر صحيح .

وكانت خطب النواب ونشاط الأحزاب ، و إلحاح رئيس الوزراء شيئا قصد به فيما يظهر إلى التخييل إلى الناس أن الأمر جد حقا ، ولكن أصحابه غلوا فيه حتى خيلوا إلى أنفسهم أن الأمر جد حقا . ونهض رئيس الوزراء بعد أن تمت له الثقة التى لم يكن يشك قبل الاستجواب وبعد الاستجواب فى أنها مقسومة له ، مقصورة عليه ، نهض فسجل هذا الفوز الباهر ، وأعلن أن الحكومة لن تستقيل كأنما عرَّض مجلس النواب الحكومة للاستقالة ، أو لوَّح أحد من النواب بالاستقالة إلى رئيس الوزارة ، مع أن الوزارة ستستقيل من غير شك ، ستستقيل فى وقت قريب لعله أقرب مما يقدِّر رئيس الوزراء ، ولكن مصدر هذه الاستقالة لن يكون إحراجا من مجلس النواب ، ولا من مجلس الشيوخ .

رئيس الوزراء يعلم هذا ، ولكنه دفع نفسه فى طريق فيجب أن يبلغ أمدها ، وينتهى إلى غايتها ، ولا بد من أن يعرض الثقة ويلح فى أن تكون عالية غالية ، ولا بد من أن يفوز بهذه الثقة ، ومن أن يسجل هذا الفوز ، ولكن المسألة التى تستحق التفكير ، لا منا نحن ، بل من رئيس الوزراء نفسه ، هى أثر هذا الفوز فى

موقفه السياسى من المصريين والإنجليز ، فهل ينشأ عن هذا الفوز الباهر أن يقتنع المصريون بثبات مركز الوزارة وأمنها من السقوط ؟ كلا ، إن المصريين لم يقدروا فى يوم من الأيام أن تضعف ثقة البرلمان برئيس الوزراء ، وهم يخرجون منح الثقة أو رفضها من حسابهم السياسى كله ، لأنهم يعلمون حق العلم أن ثقة البرلمان برئيس الوزراء كانت وستظل إلى أن تستقيل الوزارة ثقة واسعة ، لا حد لها كما قال بعض النواب أمس .

هل ينشأ عن هذا الفوز الباهر أن يعلم الإنجليز أن رئيس الوزراء مستمتع بثقة البرلمان فيصانعوه ، ويحتفظوا له بسياسة التأييد ؟ كلا فالإنجليز يعلمون من أمر الصلة بين رئيس الوزراء والبرلمان مثل ما يعلم المصريون . وهم كالمصريين يخرجون منح الثقة ورفضها من حسابهم السياسى ، وإذن ففيم الحرب والقتال ؟ وفيم الجدال والنضال ؟ وفيم الخُطب الطوال ؟

تستطيع أن تسأل عن هذا كله رئيس الوزراء وأعضاء البرلمان فسيجيبونك بأجوبة لا تغير من الحقائق الواقعة شيئا ، وهذه الحقائق الواقعة هى أن لمصر حقا تطلبه وتلح فيه ، ولا تنتظر أن تظفر به على يد رئيس الوزراء ، ولا على يد البرلمان ، وأن للإنجليز أملا يطلبونه ويحتالون فيه ، وقد أصبحوا مقتنعين الآن بأنهم لن يظفروا بأملهم هذا من طريق رئيس الوزراء ، ولا من طريق البرلمان ، فلم يبق بد من أن يعود الأمر كما كان . مصر الصحيحة غير المريضة ، مصر الصادقة غير الكاذبة ، مصر التى تستطيع أن تتكلم عن نفسها فتصدق ، وأن تعد فتفى . مصر هذه وجها لوجه مع الإنجليز فإما وفاق ، وإما خلاف .

فلينتصر إذن رئيس الوزراء ما وسعه الانتصار ، ولتنهزم إذن معارضة البرلمان ما وسعتها الهزيمة ، فإنما هذا كله أشبه بهذه الأمواج الصغار التى لا تكاد تحسّ ، والتى يحدثها النسيم على وجه الماء حين يداعب صفحة الغدير . فأما الانتصار الذى يغيِّر الأشياء حقا ، والهزيمة التى تغير الأشياء حقا ؛ فلا ينبغى أن يلتمس فى هذه الصلات المسلية بين الوزارة والبرلمان ، وإنما ينبغى أن يلتمس فى ناحية أخرى من الحياة المصرية ، ومن الصلة بين المصريين والإنجليز .